الدرس الثاني عشر:

اللّغة والمجتمع والثقافة

يشير "كلود ليفي شتراوس" إلى الصّلة القائمة بين اللّغة والثقافة، ويعتبر قضية العلاقات القائمة بين اللّغة والثقافة هي من أعقد العلاقات. إنّ اللّسان الذي يستخدمه مجتمع معيّن يعكس الثقافة العامّة للسّكان، إنّه جزء من الثقافة، كما يشكّل أحد عناصرها. ذلك أنّ الفرد يكتسب ثقافة جماعته عن طريق اللّغة. إنّنا نربي أطفالنا باستخدام الكلام، نعلّمهم ونفهمهم وننقل إليهم الأوامر، نوبّخهم ونلاطفهم ونستعطفهم... كلّ ذلك باستعمال اللّغة.

1. العلاقة بين التفكير واللّغة:

هل تشكّل اللّغات المختلفة طرق المتكلمين بها؟

وهل يفكّر المتحدثون بلغات مختلفة بطرق مختلفة؟

لقد سعت العديد من النظريات والفرضيات إلى الكشف عن دور الكلام في تشكيل أفكار النّاس، ومن أشهرها ما يعرف بفرضية "***وورف و سابير***" في الولايات المتّحدة الأمريكية.

إذ يرى ***سابير*** *Sapir* و ***وورف*** *Whorf* أنّ لغتنا تحدّد الطريقة التي نفكر بها، وأنّ اللّغات التي يتحدّث بها البشر تؤدي بهم إلى فهم العالم الذي يحيط بهم أو تصوّره بطرق مختلفة.

يمكننا تمثّل هذه الفكرة بشكل أوضح من خلال النماذج اللّغوية التالية:

– لو نظرنا لمفهوم الصداقة في العربية وفي الفرنسية، فإننا سنلاحظ من خلال ما تقوله لنا اللّغة أنّ نظرة العربيّ للصداقة مختلفة في المنطلقات عن نظرة الفرنسي لها، منبع الصداقة في العربية هو "الصدق" وليس "الحبّ" الذي انبثقت منه كلمة *"Amitié"* .

– تقسيم الألوان وتسمياتها يختلف بين اللّغات المتعددة، فكلّ لغة تعكس طريقة بناء المجتمعات وهي طريقة مغايرة من لغة إلى أخرى. انظر مثلاً إلى أسماء الأزرق والأخضر بالفرنسية وقارنه بالتسمية في العربية.

– يستعمل أفراد قبيلة الهوبي الهندية الحمراء كلمة واحدة للتعبير عن الحشرة، والطائرة، وقائد الطائرة.

– تستعمل قبائل الإسكيمو كلمات متعدّدة لأنواع الجليد المختلفة. في حين نستعمل نحن مثلاً كلمة واحدة.

– لا توجد عند قبيلة الزوني كلمتان مختلفتان للتعبير عن اللّونين الأصفر والبرتقالي.

–تترجم كلمة *uncle* الإنجليزية إلى أربع كلمات في العربية، هي العم والخال وزوج العمة، وزوج الخالة، ومثلها كلمة *aunt* التي تترجم إلى العمّة والخالة وزوجة العم وزوجة الخال.

أمّا كلمة *cousin* فتترجم إلى ثماني كلمات هي ابن العم، ابن العمة، ابن الخال، ابن الخالة، وبنت العم وبنت الخال وبنت العمة وبنت الخالة.

– يحدث ذلك حتى من الناحية النحوية، فكلمة (شمس) مؤنثة في العربية والألمانية، في حين (القمر) مذكرة في هاتين اللّغتين، ولكنّهما عكس ذلك في الفرنسية.

– هناك اختلافات من الناحية الصرفية أيضًا، فالضمير *you* في الإنجليزية يقابل (أنتَ، أنتِ،أنتما، أنتم،أنتن) في العربية.

– من الاختلافات التي تؤدي إلى بعض الصعوبات في التواصل والتفاهم ما يعانيه اليابانيون عندما يزورون فرنسا مثلاً، إذ أنّ الياباني يضع الفعل في نهاية الجملة، ولذا لابدّ من الاستماع للمتحدّث حتى النهاية لفهم ما يرد قوله.

إنّ ما رأيناه من اختلافات في التسميات يصبّ في فرضية ***وورف وسابير***، وهو ما يعبّر عنه بفكرة الأسر أو ***سجن اللّغة***، فالإنسان أسير لغته، ولكنّه أسير غير واع بأسره، وذلك لأنّ القيود اللّغوية شفافة، وشبيهة بالنظارات، تريه الأشياء بحسب لون زجاجها، وهو ما يعني أنّ وجهة نظر كل مجتمع هي وجهة نظر يمليها عليه نظام لغته، فيقول ما تقوله له لغته، ولا يمكن للغتين أن تريا العالم من منظور واحد، أو أن ترياه بلون واحد.

وبما أنّ عدد لغات البشر في العالم يعدّ بالآلاف، فإنّ هذا يعني إمكانية وجود آلاف وجهات النّظر لرؤية هذا العالم، وهو ما يدلّ أيضًا على نسبية المفاهيم التي يعيشها الإنسان. فاللّغة، لغة الإنسان، هي التي تحدّد إدراكه للواقع، وتعامله مع هذا الواقع، إنّها التي تجزّئه وتلوّنه على طريقتها.

فهل يعود هذا الاختلاف إلى أنّ البشر يتصوّرون الأشياء بطرق مختلفة ؟ أم أنّهم يتكلمون عن الأشياء بأشكال مختلفة ؟ إنّنا نتحدّث هنا عن مسألة الاختلافات الدلالية بين اللّغات، وهو ما يمكننا التعبير عنه بـالسؤال الآتي:

هل تختلف اللّغات في تصوير الواقع ؟

وهل هي (اللّغات) أمينة في تصوير هذا الواقع الذي تعبّر عنه؟

2. اللّغة والواقع:

اللّغة لا تصوّر الواقع كما هو، إنّها (اللّغة) مرتبطة بفكر الإنسان، وهذا الأخير لا يستطيع أن يدرك كل الواقع، إنّه يدرك جزءً منه فقط. وهكذا، فإنّ تعدّد وجهات النظر أو جوانب الرؤيا في نقل الظاهرة سيؤدي بالضرورة إلى اختلاف اللّغات في نقل الواقع، فاللّغات لا تصل متساوية في نقل الحقائق الموجودة في الكون.

سنتحدّث هنا عن الدليل اللّساني الذي قسّمه ***دوسوسير*** إلى الدال والمدلول، وجاء بعده كلّ من العالمين ***أوجدن*** و ***رتشاردز*** ومثلوه بمثلث الدال و المدلول والشيء المشار إليه أي المرجع. ونشير هنا إلى أنّه ليس هناك علاقة مباشرة بين الدال والمرجع. في المقابل فإنّ العلاقة بين المرجع والمدلول هي التي ترسم تصوّر الإنسان للواقع، مشكّلة بذلك ***الاختلافات بين اللّغات***.

تختلف الأمم في تصوّرها للواقع، ومنه تختلف اللّغات في التعبير عن الدلالات.

كيف يتشكل المدلول من خلال المرجع؟

تبدأ المسألة بأن يؤسس المرجع للمدلول، ثم نعطي للمدلول دالاً.

تكمن هنا الأسباب الجوهرية في اختلاف نقل اللغات للواقع، فبعد أن تتشكل اللغة من خلال الواقع، أي من خلال تجربة الإنسان، تصبح المتحكّمة في بقية الوقائع، فالإنسان يرى الأحداث ويسجلها، ويتحكم المجتمع في رؤيته (الإنسان)، لتتحوّل هذه الرؤيا التي كان من المفترض أنّها رؤيا فردية إلى رؤيا موجهة من قبل المجتمع.

ويتحكم المجتمع في ذلك عن طريق حشد مجموعة من التجارب تحت مسمّى واحد، فالفرد يرى أشياء مختلفة، ولكنّه وجد المجتمع قد سبقه في التسمية. وهكذا يجد الفرد نفسه في رواق حدّده المجتمع بشكل مسبق، فالتجربة فردية، ولكنّ المجتمع يتحكم فيها. مثال ذلك: أن نطلق لفظة قاعة على كل من القسم والمدرج والغرفة .. وغيرها ممّا اختلف شكله وحجمه ومكان تواجده أيضًا. فالمربع والمستطيل والمثلث وحتى الدائرة..، والكبر والصغر وتوسط الحجم، و المدرسة و الجامعة و البيت والمستشفى و المؤسسة...كلّها لا تشكل فارقًا مؤديًا إلى اختلاف في التسمية.

إنّ الإنسان إذا ما أبصر الشيء لأوّل مرّة يكون أمام تصوير فوتوغرافي (صورة أوّل شيء رآه)، مثلا: الزهرة، يتصوّر الفرد دائما ذلك الشكل الأوّل، وكلما قيل زهرة تذكر تلك الصورة فقط، بعدها

تتعدّد الأشكال والألوان وتتكرر. ففي بداية التجربة يكون التصوّر فوتوغرافيا، وبعد التجربة الأولى يبدأ التصور في مخالفة الواقع.

فالإنسان يطبع الصورة، وإذا رأى مشهدًا آخر، يبني تصوّرًا فيه خصائص المشهد الأوّل والثاني، ولما تتعدد التجارب يبدأ وقتها في مخالفة الواقع. ويتحكم المجتمع في بناء التصوّر، بحشر مجموعة من الأشكال تحت مسمى واحد. فإذا كانت أمّة تمزج بين شيئين اثنين، فإنّ التصوّر سيشملهما معًا، فيصبحان عند الفرد تمثيلاً لشيء واحد، أمّا إذا لم تمزج بينهما، فإنّ التصوّر سيكون هنا مختلفًا. وعليه يختلف التصوّر بتكرار المشاهد.

وهكذا، يتحكم المجتمع في التصوّر عن طريق حشر مجموعة من الأشياء تحت دلالة واحدة، هذا الحشر مختلف من أمّة إلى أخرى وهو ما يعني اختلاف التصوّر من مجتمع إلى آخر.

تختلف اللغات في تصوير الواقع، وذلك لأنّها ارتباط اعتباطي بين الدال و المدلول، فلو كانت هناك علاقة مؤسسة بين الواقع (المرجع) والدّال لما اختلفت اللغات.

و لكن قبل الانتقال من الدال لابدّ من المرور بالمدلول أوّلاً، أي المرور بالتصوّر، وبما أنّ التصوّر مختلف فإنّ اللغات ستختلف بالضرورة في تصوير الواقع.

يمكننا تمثيل هذا الكلام بالمخطط الآتي:

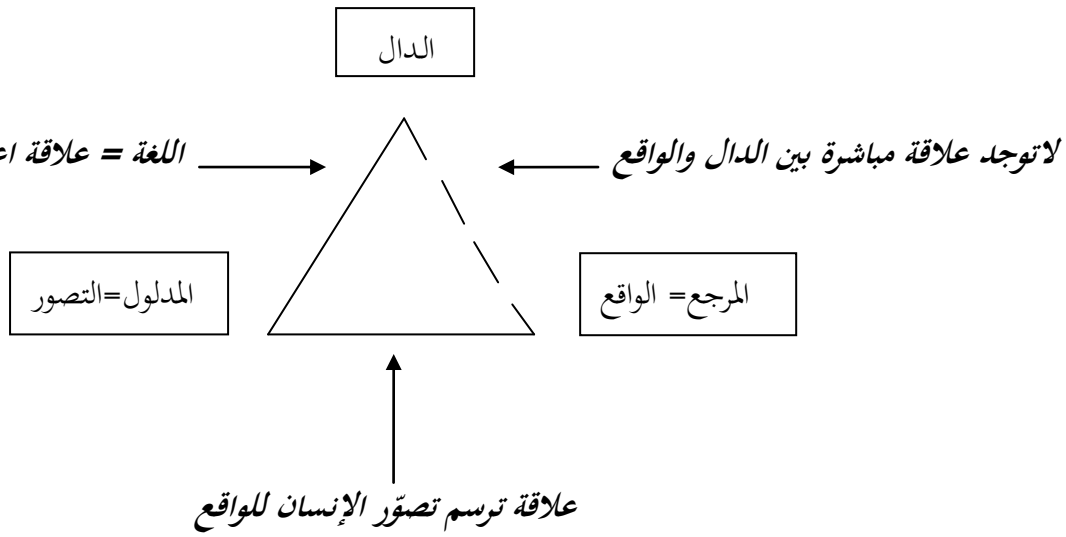

ملاحظة:

استفادت هذه المحاضرة من:

أحمد شفيق الخطيب: قراءات في علم اللّغة، دار النشر للجامعات، مصر، 2006.